

المدينة في الخطاب الجغرافي والفقه العربي الإسلامي.

City in Arab-Islamic geographical and jurisprudential discourse.

الطاهر طويل

مخبر دراسات في الثقافة والمجتمع - جامعة باتنة 1.

الجزائر)، tahar.touil@univ-batna.dz

تاريخ الاستلام: 2025/10/08 تاريخ القبول: 2025/12/10 تاريخ النشر: 2025/12/22

تعددت الدراسات حول موضوع العمارة والعمران وتحديدًا مسألة المدينة، وحول هذا الموضوع درجت مختلف الدراسات تجنب الشمولية والتعامل بنظرة عامة للحواضر والمدن، وأغلبها ينطلق في دراسته للموضوع من الرؤية المحلية الخاصة بمدينة محددة، وفي هذه الحالة تكون الدراسة محكومة بنظرية ومنهج جزئي، بدل الدراسة وفق سياق تاريخي وحضاري يجنب الدارس إشكالية القطيعة في حركة تأسيس ونشأة المدن.

وقد وراكمت الحضارات المختلفة عبر القرون تراث غني حول المفاهيم الخاصة بالعمران، وفي فترة العصر الوسيط حيث عرفت ظهور العمران الإسلامي، ظهرت معها مفاهيم مختلفة للعمران والمدينة أغنت بها التراث العربي الإسلامي، والذي يحمل رصيда معجميا ضخما وواسعا. ولا تكتمل صورة المدن إلا إذا عرفنا أهم مقولات الفقهاء وكتب الأحكام، والجغرافيين، ومختلف مفاهيمهم فيما يتعلق بموضوع المدينة والعمران. إذ يعتبر الكثيرون أن ما كتبه هؤلاء إنما هي كتب في جغرافية المدن، وأن ذلك يعود لاهتمامهم بالجوانب الحضارية، ومراكز السلطة السياسية، ومحاور الجباية، ونقاط الدفاع والحرب، ومنابر الدين، والتجمع السكاني، ومحطات القوافل، وكل ذلك يتجمع في المدن.

هذه القضايا كلها تدل على ثراء وشمولية التراث العربي الإسلامي في الجانب المتعلق بالعمران والمدن، والتي شكلت جزءا هاما ومشرفا من تاريخ الإنسانية، والتي نحاول التطرق إليها

الملخص

بالتفصيل في هذه الدراسة من خلال معرفة المفاهيم الجغرافية المتنوعة ونظرة الفقيه للمدينة والعمران بصورة عامة.

المدينة؛ الجغرافيا؛ الرحلة؛ الفقهاء؛ العمران.

الكلمات الدالة

Abstrac:

There have been many studies on the subject of architecture and urbanism, specifically the issue of the city. On this subject, various studies have tended to avoid comprehensiveness and deal with a general view of cities and cities. Most of them rely in their study of the subject on the basis of the local vision of a specific city. In this case, the study is governed by a partial theory and method, instead of studying according to A historical and cultural context that avoids the Researchers from the problem of rupture in the movement of founding and developing cities.

Different civilizations have accumulated over the centuries a rich heritage around the concepts of urbanism, and in the Middle Ages, when Islamic urbanism emerged, different concepts of urbanism and the city appeared, enriching the Arab-Islamic heritage, which carries a huge and extensive dictionary stock.

The picture of cities is not complete unless we know the most important sayings of jurists, books of rulings, and geographers, and their various concepts regarding the subject of the city and urbanization. Many consider that what these people wrote are books on the geography of cities, and that this is due to their interest in cultural aspects, centers of political power, collection axes, defense and war points, religious pulpits, population centers, and caravan stations, all of which are gathered in cities.

All of these issues indicate the richness and comprehensiveness of the Arab-Islamic heritage in the aspect related to urbanization and cities, which formed an important and honorable part of the history of humanity, and which we attempt to address in detail in this study through knowledge

of the various geographical concepts and the jurist's view of the city and urbanism in general.

Keywords: City; geography; journey; jurists; urbanism.

1. مقدمة:

تعتبر المدينة من القضايا التي تتميز بتشعب المقاربات واختلافها حول طبيعة هذه الظاهرة الاجتماعية وأسسها والمشكلات والقضايا التي تتطلب دراستها؛ فهي تتقاطع وتتشرك مع الكثير من التخصصات، ولأنها ظاهرة تحتاج إلى دراسات سوسيو-تاريخية وثقافية واقتصادية وغيرها، فإن الاشكال يكمن في اختلاف منطلقات الدراسات حولها، إذ نجد أن المهتمين بالمدينة يختلفون حول التصورات العامة للمدينة تبعا لاختلاف خلفياتهم وأهدافهم المعرفية، ولذلك أصبحت عملية الجمع بين مختلف الرؤى والحقول المعرفية مسألة ضرورية من أجل الإحاطة بموضوع المدينة.

نتيجة هذا الاختلاف اخترنا دراسة المدينة من زاوية ثنائية تجمع بين الرؤية الجغرافية والرؤية الفقهية، فلا يخفى أن الجغرافيا بشقيها (الجغرافيا الوصفية والرحلة) تقدم اسهاما للتأريخ للمدينة الإسلامية، وهي الظاهرة التي عمل الفقهاء على ضبطها وتنظيمها وفق مبادئ وأسس العقيدة والشريعة الإسلامية.

2. المفاهيم العربية للمدينة:

1.2 المفهوم اللغوي:

يرى ابن منظور أن مصدر المدينة: من مدن بالمكان: أقام به... ومنه المدينة... وفلان مدن المدائن: كما يقال مصر الأمصار. والمدينة: الحصن يبنى في أصطمة الأرض مشتق من ذلك. وكل أرض يبنى بها حصن في أصطمتها فهي مدينة... والجمع مدائن ومدن¹.

ومن خلال هذا المفهوم نجد أن المفردات القديمة الخاصة بمعاجم اللغة العربية القديمة لا تتوافق ومعاني المدينة الحديثة؛ وهذا ما يؤكد هشام جعيط الذي يرى أم مفهوم المدينة قد يشير إلى الحصن، أو المدينة- المحصنة، تلك التي تحتوي على عمران الحصون يفوق باقي القطاعات الأخرى².

ولا يمكن أن نغفل أن دراسة هشام جعيط اقترنت بمدينة "الكوفة"، وهي من الأمصار القديمة التي تأسست في الحضارة الإسلامية طبقا لمخطط اعتمد الجوانب الدفاعية واهتم أكثر بتحصين المدينة لوقوعها وسط أخطار كثيرة كانت تتهددها. ولا يمكن لهذه الشروط أن تكون هي نفسها في باقي المجالات المفتوحة في بلاد المشرق والمغرب على السواء، وهي مجالات اشتملت على أقاليم متنوعة بخلفياتها التاريخية المختلفة، ليس فقط في الجانب العمراني الحضري بل في كافة الجوانب الأخرى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها كثير.

ترد كلمة Villa في القاموس الفرنسي لاروس La rousse بمعنى: دارة. فيلا (بيت ريفي أنيق). أما كلم Village فتعني: قرية أو ضيعة أو أهل قرية. أما كلمة ville فمعناها: مدينة أو سكان مدينة³. فارتبطت بذلك مفردة المدينة بالعمارة الريفية. ولا يتطابق هذا المعنى بطبيعة الحال مع الشروط الحضارية التي ظهرت فيها المدينة العربية الإسلامية.

فالمدينة العربية الإسلامية اشتملت على الكثير من المعاني والمفاهيم الواسعة، واستخدمت مفردات عديدة تشير كلها إلى المدينة، ولكن صياغتها تختلف، فنجد على سبيل المثال: مصر، ووطن، وبلد، وحصن، وحاضرة، ومدرة، وهي كلها مفاهيم تشير إلى المعنى نفسه بصيغ أخرى مختلفة⁴، استخدمت من طرف اللغويين والفقهاء والمؤرخين والجغرافيين، وغيرهم، نسوقها في الصفحات التالية كي نقف على المفهوم الشامل الذي يزخر به الفكر العربي الإسلامي مشرقا ومغربا حول العمران عامة، والمدن بصفة خاصة.

3. الجغرافيون ومفهوم المدينة:

لقد ارتبطت المدن بالعمارة، هذه الأخيرة التي يعرفها الراغب الأصفهاني: بـ "أنها نقيض الخراب، يقال عمر أرضه يعمرها. قال: وعمارة المسجد الحرام. يقال: عمرته فعمر فهو معمور. قال: «وعمرها أكثر مما عمروها»، و«البيت المعمور». واعتمرته الأرض واستعمرته، إذا فوضت إليه العمارة"⁵.

ولارتباط النخب العربية الإسلامية بالشريعة الإسلامية وتعاليمها في مرحلة الإسلام المبكر، نجد أن العمران والمدن قد جلب اهتمام الرحالة والجغرافيون، لما تشكله مختلف الأمصار من قيمة حضارية وأهمية اقتصادية واجتماعية كمكان اجتماع الناس وإقامة شرائع الدين فيها. وعلى أساس هذا العمران كان تقاس قوة الأمم والحضارات، وتعرف أهميتها. فالمدن عند المقدسي كالجند، والقرى كالرجالة وهي تستقطب السكان لكثرة خيراتها وتوفر أسباب العيش فيه⁶.

ومن أجل ذلك فقد ركز الرحالة والجغرافيون على الوقوف على معالم المدن ومواقعها وأسوارها وخصائصها الطبيعية والتضاريسية، وامكانياتها الاقتصادية مثل الأسواق والأطعمة وأسعارها والأشربة والبساتين والحداثق ومختلف الزروع والفواكه والنخيل، او البضائع المخصصة للتجارة⁷.

وقد فرق الجغرافيون بين الحواضر والمدن، لأنها لم تكن على نفس الدرجة من الأهمية، وكانت تختلف قيمتها العمرانية والسياسية والاقتصادية والتاريخية والثقافية والدينية، لذلك نجدهم قد ميزوا بين المدن الصغيرة والقرى والحواضر الكبرى والعواصم⁸.

ويتأكد لنا هذا خاصة إذا علمنا أن الخلفيات التي كانت وراء ظهور كتب الجغرافيا (تحت مسمى المسالك والممالك) هي تلك المتعلقة بالجوانب الإدارية والاقتصادية التي لعبت دورا هاما في ذلك؛ حيث كانت لها علاقة بديوان الخراج الذي يقوم بالجباية، ثم أخذ هذا النوع من الكتابة طابعا أدبيا في العصر العباسي، وهو الذي جعل "أندري ميكل" يسميها "بنت الخلافة"⁹ (la géographie arabe et la fille du califat).

أما عن جغرافية المدن فهي تشكل بابا أساسيا في الجغرافيا الوصفية العربية لأنها تمكن الجغرافيا من عرض الأقاليم والتعريف بها من خلال مدنها فالتعريف بالكل يتم عبر معرفة الأجزاء المتفرقة أولا والمتصلة ثانيا، لذلك فإن جغرافية الخلافة الإسلامية كما نجدتها عند الجغرافيين والمسالكين تمكنا من الوقوف على مختلف مكوناتها وتفصيلها الجزئية عبر قراءة هذه الشواهد

والأوصاف والمصنفات التي دونت في كتب الجغرافيا ومصنفات الرحالة حول المدن لأنها تتوفر على معطيات ميدانية وشهادات حية لمختلف أوصاف وخصائص العمران.

وقد تطورت الجغرافيا العربية الإسلامية من منطلقات بيئة محلية مرتبطة بنمط العيش في الصحراء والحاجة لمعرفة طبيعة الصحراء ومصادر الماء والمسالك والطرق، ثم كانت مرحلة الجغرافية الإقليمية المبنية على المعاينة الميدانية والوصف الدقيق للطبيعة والبشر، في القرن الرابع والخامس الهجريين - العاشر والحادي عشر الميلاديين. ويمكن القول بأن هذه المرحلة الثانية هي التي أسست للجغرافية العربية الإسلامية، في شقها الإقليمي، المتحررة من الرؤية الإغريقية¹⁰. ويجسد ابن حوقل هذا التحول المعرفي الكبير في الرؤية الجغرافية خلال القرن العاشر الميلادي؛ فهو يقر قائلاً: "لم أقرأ في المسالك كتاباً مقنناً وما رأيت فيها رسماً متبعاً فدعاني إلى ذلك تأليفي هذا الكتاب واستنطقي فيه وجوهاً من القول والخطاب"¹¹.

إن العرب منحوا لهذا القطاع (الجغرافية) المعرفي الحيوي مكانة خاصة بإدخالهم لتقنيات جديدة في طريقة وضع الخرائط وأوصافهم لشعوب العالم المعروف آنذاك، استناداً إلى المشاهدة والملاحظة، ففي مرحلة أولى استأنس العرب بكتاب بطليموس في "الجغرافية"، لكن ما اختطه هذا الجغرافي الإغريقي كان يقتصر على العالم المعروف لدى الإغريق، ألا وهو الحوض المتوسط في حين ظلت باقي الأراضي في حكم المجهول (Terra Incognita). والحال أن الخلافة الإسلامية كانت قد امتدت أطرافها إلى أقصى الشرق من هذا الحوض. ولذلك فإن العرب هم الذين أدمجوا هذا المجال الكبير من العالم في التصور الجديد للأرض. وقد تأتى لهم هذا الحقل المعرفي الكبير، الذي وضع لمسة خاصة على علم الجغرافية، بفضل الحساب، إذا استطاعوا تدقيق الكثير من

المعطيات الحسابية ومراجعتها وتصحيحها¹². وفيما يلي نقدم نماذج من النصوص الجغرافية والرحلية ومفاهيمها للمدينة:

1.3 اليعقوبي: (ت عام 897/284م)

من أقدم الجغرافيين الذين زاروا بلاد المغرب، وعن مؤلفه "البلدان" يقول: "إني عنيت في عنفوان شبائي. بعلم أخبار البلدان ومسافة ما بين كل بلد وبلد لأني سافرت حديث السن.. فكنت متى لقيت رجلا من تلك البلدان سألته عن وطنه ومصره.. وسألته عن بلده ذلك في.. مدنه ما هي؟ وزرعه ما هو؟ وسأكنيه من هم عرب أم عجم.. وسألته عن شرب أهله حتى أسأل عن لباسهم ودياناتهم ومقالاتهم والغالبين عليه ومسافة ذلك البلد وما يقربه من البلدان.. ثم أثبت كل ما يخبرني به من أثق بصدقه حتى سألت خلقا كثيرا"¹³.

2.3 ابن حوقل: (ت حوالي 390هـ)

كتابه "صورة الأرض" يندرج ضمن دائرة كتب "المسالك والممالك" وهو مكمل لما رآه من الأصطخري أنه نقص من كتابه، وقد أرفق ابن حوقل مصنفه بمصورات وخرائط توضيحية للأقاليم التي زارها، وحدد المدن والخواضر مع بيان المسافات التي تفصل بينها والطرق والمسالك التي ترتبط بها. وقد ألح على متانة وصديقة ما جاء في مصنفه فيقول: "قد جعلت لكل قطعة أردتها تصويرا وشكلا يحكي موضع ذلك الإقليم ثم ذكرت ما يحيط به من الأماكن والبقاع وما في أضعافها من المدن والأصقاع وما لها من القوانين والارتفاع وما فيها من الأنهار والبحار وما يحتاج إلى معرفته من جوامع ما يشتمل عليه ذلك الإقليم من وجوه الأموال والجبايات والأعشار

والخزاجات والمسافات والطرق وما فيه من المجالب والتجارات. إذ ذلك علم يتفرد به الملوك الساسة وأهل المروءات والسادة من جميع الطبقات¹⁴.

وفي المنهج الذي اتبعه لم يقتصر على الجانب النظري الوصفي فقط بل يقول: "ثم ذكرت المغرب ... وبدأت بشكل ما حاذى منه أرض مصر إلى المهدية والقيروان وما في براريها من المدن وإن قلّت. وأعقبته بباقي صورته من القيروان والمهدية إلى أرض طنجة وازيلي، ورسمت على بحره مدنه الساحلية وشكلت طرقه جميع أنحائها"¹⁵.

3.3 المقدسي: (ت حوالي 387)

يعتبر من أكثر الجغرافيين العرب أصالة¹⁶. فقد أولى هذا الجغرافي أهمية كبيرة في ضبط المفاهيم وتحديد معاني المصطلحات الخاصة بالعمران والحواضر والمدن. فنجدته يفرق بصورة دقيقة بين: المصر، القصبة، المدينة، والقرية. وقد أعطى تعاريف لكل هذه المصطلحات¹⁷.

يقدم لنا المقدسي ثلاثة مفاهيم تتعلق بمسألة العمران والمدن، تتعلق بتعريفه للأمصار، والمدن، والأقاليم والنواحي؛ في البداية نجدته يقسم العمران إلى عدة أصناف تراتبية حسب درجتها، ويقول: "اعلم أنا جعلنا الأمصار كالملوك والقصبات كالحجاب والمدن كالجند والقرى كالرجال"،

ثم يضيف ويرد على اختلاف رأي الفقهاء في تعريفهم للمدن ويقول: "فقال الفقهاء: المصر كل بلد جامع يقام فيه الحدود ويحلّه أمير ويقوم بنفقته ويجمع رستاقه"¹⁸.

أما مفهومه هو للمدينة فيقول: "وأما نحن فجعلنا المصر كل بلد حلّه السلطان الأعظم وجمعت إليه الدواوين وقلدت منه الأعمال وأضيف إليه مدن الإقليم"¹⁹، ويعطي أمثلة بدمشق، والقيروان وشيراز.

ثم يردف بالقول أن هذه الأمصار قد تكون لها نواح وأقاليم فيها مدن تابعة لها، مثل تبعية الزاب لإفريقية. أما هذه الأقاليم فلها مكوناتها "ولا بد لكل إقليم من كور ثم لكل كورة من قصبة ثم لكل قصبة من مدن"²⁰.

أما مفهومه للنواحي فهو يعطينا مثالا عن مجموعة نواحي قرطبة التي سأل عنها؛ فقال: "قلت: هل بقي لقرطبة غير هذه الرساتيق والمدن؟ قال: لا. قلت: فإشبيلية وبجانة وذكرت عدة من البلدان؟ قال: هذه نواح لها أقاليم كما تقول القيروان، وتاهرت، وسجلماسة"²¹.

4.3 الشريف الإدريسي: (493هـ - 1099/556 هـ / 1160 م)

المعروف عن المقدسي أنه جغرافي على قدر كبير من المعرفة بمختل العلوم والمعارف التي سمحت له بأن يتبوأ مكانة مرموقة في علم الجغرافيا؛ فهو ملم بعلوم النقل من فقه وحديث ولغة، كما أنه كان يتقن علوم الحساب والهندسة وعلم الفلك، ومطلع على علم الأعشاب، وعلى قدر

من العلوم الطبية، ويعرف أحوال الدول وعلم السياسة. لكن الجغرافيا شكلت القسط الكبير من إنتاجه²².

وقد أشار الادريسي إلى قائمة المصادر التي اعتمد عليها في كتابة مصنفه، ففي مقدمة الكتاب يذكر أنه نقل عن المسعودي في كتاب "العجائب"، وكتاب أبي نصر سعيد الجيهاني، وكتاب ابن خرداذبة، وكتاب أحمد بن عمر العذري، وكتاب أبي القاسم محمد بن حوقل، وكتاب جاناخ بن خاقان، وكتاب موسى بن قاسم، وكتاب أحمد بن يعقوب المعروف باليعقوبي، وكتاب إسحاق ابن الحسن المنجم، وكتاب قدامة البصري وكتاب بطليموس الأفلودي، وكتاب أرسينوس الأنطاكي. ولا شك أنه أغفل ذكر بعض المصادر التي اعتمدها مثل: كتاب "البلدان" لابن الفقيه، و"رحلة سليمان التاجر" وكتاب الخوارزمي "رسم الربع المعمور"، وكتاب "الأعلاق النفيسة" لابن رسته. وتقد هذه القائمة دليلا على تنوع وثراء مصادر الادريسي واستفادته من جمعه المادة من مختلف المصادر. وكانت المدن حاضرة في مصنفه والتي وصفها من مختلف النواحي وربطها بمواقعها على الخرائط²³.

5.3 كتب المعاجم الجغرافية:

نجد **ياقوت الحموي** (626هـ / 1229م) كتب أكبر معجم عربي جغرافي "معجم البلدان" ضمنه الكثير من المعلومات في التاريخ والتراجم والأدب واللغة، وقد بين في مؤلفه هذا الأمصار والمدن حسب البروج والأقاليم، كما قدم لنا الكثير من الشروح لمفردات الرستاق والإقليم

والكورة والمصر والسكة. ولياقوت الحموي كتاب "المشترك وضعا والمفترق صقعا"²⁴ ذكر فيه الأمصار والمدن التي تتفق في الرسم والاسم وتختلف في المواقع في البلدان.

الحميري محمد بن عبد المنعم: ألف كتاب "الروض المعطار في خبر الأقطار"، وهو معجم جغرافي لأسماء المدن والبلدان مرتبة حسب أسمائها على الألقباء. وقد ركز الكاتب على مدن بلاد المغرب والأندلس. ورغم الانتشار الذي عرفه هذا المؤلف إلا أننا نجد بعض التحفظات المتعلقة بهوية الكاتب وقد أثارها بعض الدارسين مثل كراتشوفسكي وحسين مؤنس محمد المنوني وغيرهم. ويرجح البعض أن يكون الكاتب تونسيا²⁵.

4. كتب الخطط:

يقدم هذا الصنف من الكتب نوع من الكتابة الدقيقة حول العمران والمدن، ذلك أنها تركز على وصف الأحياء والنواحي والسكك، ونجد هذا النوع من الكتابة في مؤلف ابن عبد الحكم (ت257هـ/ 871م) في مؤلفه "فتوح مصر والمغرب"، حيث ذكر باب خاص بالخطط يتعلق بالفسطاط والإسكندرية والجيزة. وأهم كتاب في الجانب هو كتاب "الموعظة والاعتبار في ذكر الخطط والآثار" للمقريزي والذي يعتبر أنموذجا لهذا النوع من المصنفات. وخص القاهرة بوصف دقيق لأزقتها وأحيائها ودورها ومساجدها وكنائسها وأبوابها وقصورها، فضلا عن عادات وتقاليدها سكانها في المواسم والأعياد والاحتفالات.

يمكن القيام بدراسة إحصائية عن المؤلفات والكتب البلدية التي تختص بدراسة مدينة معينة، والتي تتطرق بالإضافة إلى تاريخ المدينة، تخطيطها، ومرافقها العامة مثل الحمامات والمساجد والشوارع والأزقة وطرق وأنماط بناءاتها. وتطور الكتابات التاريخية والجغرافية في العالم الإسلامي

أصبحت أغلب المدن الكبرى لكل واحدة منها مؤرخها الذي يرصد تطورها في مرحلة معينة من التاريخ، وتسمح لنا هذه النصوص التاريخية والجغرافية بالوقوف على التطور التاريخي لل عمران والمدن في العالم الإسلامي.

وباستثناء التواريخ المحلية لمختلف المناطق، أو تلك المؤلفات التي كتبت بلغات غير عربية، يحصي مصطفى شاكرك بين القرنين الثالث والسابع أكثر من مائة وثلاثون مؤلفا، زاد هذا العدد وتضاعف فيما بعد، وخص مدينة بغداد التي تتمتع بتاريخ هام في تلك الفترة، ثم تليها البصرة والكوفة وواسط والموصل وهي مدن نجد لها أكثر من تاريخ واحد. والأمر ذاته ينطبق على مدن بلاد فارس، وكلما زادت أهمية المدينة زادت الكتابات التاريخية والجغرافية التي تؤرخ لها وتصف خططها وشوارعها وأسواقها ومساجدها وغيرها من المرافق²⁶.

كما أن تأسيس بعض من المدن الإسلامية صاحبه ظهور أساطير عديدة تتعلق بتلك النشأة، وهو تقليد ألفنا وجود مثله في الحضارات القديمة عند اليونان والرومان. وتتصل هذه الروايات في معظمها بتمجيد الأماكن وتقديسها، أو تقديس الشخص المؤسس للمدينة، وعادة ينسب إليه صفات وكرامات أو قوة خارقة²⁷. وقد ارتبطت هذه الروايات كثيرا بالمدن التي ستصبح عواصم للدول والإمارات كما نجده في مرحلة بناء وتأسيس القيروان، ومدينة تيهرت وسجلماسة.

إن الروايات الأسطورية تلك تعتبر وسيلة لمعرفة المصير المجهول في حياة المدن والدول، وهي تعبير عن العقلية المغربية والمشرقية وخيالها في الظرفية الاجتماعية والسياسية والطبيعية التي مرت بها. إذ أنها تعبر عن نمط ومناهج التفكير المثالي لدى المؤرخين. فهل كانت هناك قابلية لتوليد الأساطير في العهد الإسلامي؟ فالروايات الأسطورية تشتمل على مميزات مشتركة بين أمم مختلفة انتقلت إلى المسلمين من عصور توليد الأساطير عند الأمم والشعوب، وانبعثت هذه

الروايات والأقاصيص الأسطورية في عصر النهضة الإسلامية بسبب التفتح على المعارف السابقة حين الاتصال بالشعوب المختلفة عن طريق التجارة البعيدة المدى شمالا وجنوبا وشرقا وغربا²⁸. وهذا ما نجده في العاصمة الرسمية تبهرت الإمارة الإباضية التي برزت ببلاد المغرب الأوسط، وتبدأ مرحلة التأسيس الفعلي للدولة، فقد كان أول عمل يقوم به عبد الرحمن بن رستم هو بناء المدينة التي ستكون عاصمة لدولته، وفي مجال جبلي حيكت حوله أساطير²⁹ مماثلة لتلك التي صاحبت تأسيس القيروان.

وكثيرا ما اتخذت المدن الكبيرة عواصم سياسية للدول والامارات أو دينية أو علمية أو اقتصادية وأحيانا أخرى تجتمع في المدينة الواحدة كل هذه العناصر أو بعضها مثل بغداد ودمشق ومكة وتونس والقيروان. والقصبات أو الأمصار من المدن، هي عواصم سياسية مثل القيروان وبلرم وبغداد³⁰.

وفي الجزائر في العصر الوسيط نجد أن قلعة بني حماد العاصمة الحمادية إحدى أهم منجزات قبيلة صنهاجة العمرانية ومن أهم النماذج لمدينة المغرب الأوسط المحدث. فرغم حداثة عهد قبيلة صنهاجة بالحكم والترف وثمار الملك إلا أن بدايتهم في تأسيس الملك كان مقترنا بالبناء

واختطاط المدن³¹. إذ كانت القلعة تحتوي على القصور والبيوت والصحاريح والأحواض والأحياء والغرف وهي التي عثر عليها في مختلف الحفريات³².

ومع ازدهار الحركة العمرانية بالمغرب الأوسط ظهرت عواصم جديدة مثل بجاية عاصمة الحماديين الساحلية³³. أما العاصمة تلمسان فالمدينة ولموقعها وخصائصها الهامة لعبت جغرافيتها دورا كبيرا في أن تكون أحد أهم المدن التي تأسست فيها إمارات عديدة كانت تسعى دوما للثورة على المركز. وكانت تسمى "قاعدة المغرب الأوسط" لها أسواق، ومساجد، ومسجد جامع، وأشجار، وأنهار عليها الطواحين، وهو نهر سطفسيف، وهي دار مملكة زناتة ومتوسطة قبائل البربر، ومقصد لتجار الآفاق³⁴.

5. المدينة والمسالك عند الرحالة:

مثلت الرحلة والجغرافيا التي نالت اهتمام الباحثين مصدرا لا يستغنى عليه لدراسة تاريخ العمران البشري، وكل ما له صلة بالحواضر والمدن والقلاع والحصون والأسوار، كما أنها غنية بأوصاف الجماعات والقبائل في مختلف المناطق من خلال الدراسات العميقة لحياة الناس واحتكاكهم المباشر بمختلف شرائح المجتمع في خلال رحلاتهم في المدن وفي الأرياف، وحتى في أثناء حركة تنقلاتهم وسفرياتهم.

وقد اعتاد الكتاب العرب على استعمال مفهوم "أدب الرحلات" للدلالة على كتابات الجغرافيين والرحلة العرب والمسلمين الذين جالوا بين البلدان ووصفوا أهاليها وتركوا بالتالي مادة غنية بالعناصر الأدبية، تجمع بين الوصف والكشف، والانطباع الشخصي والمغامرة، والرحلات التي كان يتكدها مجموع الأخبار، والتي كانت تستغرق الفترة الأكبر من أعمارهم من أجل التثبيت في الأخبار والسعي إلى استقائها من مصادرها الأصلية، مما يوحي بوجودها مكتوبة في أماكن معينة³⁵.

ويطرح الرحالة إشكالية سادت في العصر الوسيط، وهي مسألة الطرق والمسالك التي تربط بين المدن والحواسر؛ فقد اعتبرت المسالك مشغلا أساسيا من مشاغل الجغرافية العربية فقد خصها الجغرافيون والرحالة بمصنفات تتناول الطرق والمحطات الرابطة بين النقاط الأهلة والمراكز العمرانية الكبيرة والصغيرة.... ويعتبر كتاب ابن خرداذبة -فاتحة التصنيف الجغرافي العربي - دليلا على ما أولاه هؤلاء من اهتمام بالمسالك وطرق البريد، فالمعرفة بها تيسر مسالك السيطرة على أقاليم العالم الإسلامي، وتمكن الدولة من مراقبة كل المواقع إداريا وجباثيا وعسكريا³⁶.

وفي كثير من النصوص الجغرافية والرحلية يتحول المكان المقصود من الرحلة إلى فضاء للعبور والانتقال إلى أهداف أخرى غير التي كانت في أول الرحلة، مثل ابن بطوطة الذي حدد هدف وجهة رحلته إلى الحج، ثم ارتحل بعد ذلك إلى أهداف شتى، وهو الأمر الذي يتحقق في النصوص الزيارية والعلمية والسياحية، بينما يبقى النص السفاري ملتزما بالأمكنة التي يرسمها منذ البداية.

ونتيجة لحركة الانتقال للرحالة قديما، فإننا نجد ارتباطا وثيقا بين الرحالة والمكان، ويظهر ذلك في مختلف مصنفااتهم وكتبهم التي دونت في مختلف المراحل والحقب التاريخية، أو في النصوص الحكائية، كما ارتبط بالخيال والكتابة؛ أي بالتذكر في مستوياته الحينية والمؤلة حتى أصبح مرجعا للتذكريات وسجلا لاسترجاع تزاوج بين التقريرية والشاعرية³⁷. ويبقى النص الرحلي عموما هو الذي يكشف إمكانية ورغبة الرحالة في رؤية فضاء ورؤية الآخرين من أجل استيعاب وحدة الفكر البشري وتنوع المجتمعات³⁸.

بالنسبة للإطار العام الذي تحدث فيه الرحلة، فيكون هو المتحكم في انطباعات وأحكام هؤلاء على الحواضر والمدن والقصور والأربطة ومختلف مظاهر العمران الحضري والبدوي، وتحدد هذه النصوص الرحلية أصناف الرحلات، انطلاقا من البدايات الأولى للرحلة وما يسبقها من ظروف ودافع، ثم تليها الإشارة إلى الأماكن المقصودة بالرحلة، ونوعيتها؛ فنجد الرحلات السفارية الرسمية، ورحلات الحج وزيارة الأماكن المقدسة، ثم رحلات العلماء وطلبة العلم، ورحلات التجار، وغيرها كثير. وهذا هو الإطار العام للرحلة التي تحقق أغراضها³⁹.

أما بالنسبة للتجربة التاريخية للمدينة الإسلامية ببلاد المغرب في العصر الوسيط فإن القيام بمهمة تحديد البدايات الأولى لنشأتها أمر تعترضه الكثير من العوائق، خاصة إذا ما تناولنا المدينة من وجهة نظر النصوص التاريخية الأدبية. وهذه العوائق لا تقتصر فقط على المدن القديمة التي تعود نشأتها إلى قرون عديدة قبل الميلاد، وهي كثيرة ومنتشرة في جميع المناطق، ولكن الصعوبة تشمل أيضا بعض المدن الإسلامية التأسيس والنشأة مثلما هو الشأن بالنسبة لتلمسان، أو فاس

على سبيل المثال، وأيضاً بالنسبة للمدن القديمة التي استمرت أدوارها بعد الفتح الإسلامي لبلاد المغرب.

تظل العلاقة بين الراوي والأمكنة المقصودة ملتبسة أو صريحة لارتباطها بنوعية الرحلة، ثم الاسقاطات الممكنة، حيث ترتبط في النصوص السفارية بالسياسة وبالأمرأ والحكام واتباعهم، وفي النصوص الحجية الزيارة ترتبط بالمقدسات والتاريخ، بينما تستدرج الرحلات العلمية الحديث عن العلماء والفقهاء والمعارف، وفي هذا الارتباط توحد بين المكان وأهله، وهي الرؤية التي يمكن استخلاصها باعتبارها معطى في ذهن تفاعلت بداخله المقروءات بالمسموعات مع المشاهدة والمقارنة، ثم الاحتكاك بأهل الفضاء⁴⁰. ومن الأمثلة على ذلك فإننا نجد مفهوم "دار الهجرة" التي أكدت نفسها في الفكر الإسماعيلي لإضفاء الشرعية في تاريخ المجتمع الإسماعيلي، هذه الجماعة التي تعتبر أن أئمتها ورثة النبوة وأصحاب الحق الإلهي. ويرى فقهاؤهم بضرورة الهجرة إلى أرض المنفى (دار الهجرة) من أجل الجهاد وفرض قوانين عادلة⁴¹.

أما بالنسبة لموضوع المدينة من حيث الأصل والنشأة والاستمرارية فقد درجت مختلف الدراسات اعتماد طرق ومناهج تقوم على أساس الرؤية والمنهج التجزيئي للموضوع بدل النظرة الشاملة، وهي التي تسمح للدارس استحضار عنصر لاستمرارية والدورة الحضارية للمدن والحواضر الكبرى خاصة، بدل إخضاعها لظروف طارئة، أو عوامل عسكرية وسياسية، أو بيئية، قد تؤثر فيها في مرحلة قصيرة من الزمن لكنها لا تمنع دورها العام واستمراريتها التاريخية متجاوزة هذه الظروف المؤقتة، فقد خضعت العديد من المدن والحواضر عبر التاريخ لقوى معادية وتعرضت

لانتكاسات أو تخريب، لكننا نجدها في فترات لاحقة تستمر في التطور والنمو، لأنها امتلكت تاريخا وارثا حضاريا يسمح لها بالاستمرارية⁴².

6. الخطاب الفقهي والمدينة:

الفقه لغة: هو العلم بالشيء والفهم والفتنة. وفقه: كعلم وكفهم: سبق غيره بالفهم⁴³. أما اصطلاحا فهو: العلم بالأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية.

والفقه في معناه هو الفهم، ويتضمن استيعاب المنظومات الحضارية والثقافية والسياسية والدينية السابقة بدقة، من أجل المعرفة الدقيقة للتجربة الدينية لأمتنا وفهما. انطلاقا من قاعدة أن الإنسان مكلف ومستخلف في الأرض لإعمارها⁴⁴.

أما علاقة الفقه بالمدينة الإسلامية فإنها مترابطة ارتباطا كاملا بالإسلام كمنهج وطريقة في الحياة، فإن أي دراسة علمية سليمة للمدينة لا بد من أن تضع في اعتبارها أن الإسلام ونظمه وأحكامه هي المحور الأساس الأول الذي تدور حوله المدينة بأسرها بكل تفاصيلها وجزئياتها. بجوانبها المختلفة اجتماعية كانت أو اقتصادية أو سياسية. وأيضا في شكلها المادي للمدينة الإسلامية. لذلك يكون الرجوع للمصدر الأول ضرورة لفهم السياق التاريخي الذي حكم المدينة الإسلامية، والتغيرات التي أحدثتها في المجال الذي امتدت إليه الفتوحات الإسلامية⁴⁵.

ويشكل العامل الديني سببا من أسباب تفضيل مدينة على أخرى؛ فالمدن المقدسة غير المدن العادية، لأنها مراكز روحية تمارس فيها العبادات بمختلف وجوهها. وتعد مكة أهم مدينة دينية في نظر الجغرافيين وهم بذلك يجارون تصورا إسلاميا قائما يشيد بمكة وأجوارها مثل المدينة والطائف. وتعد مكة قبلة المسلمين في مواسم الحج والعمرة، يتبركون بها وبعنصرها التاريخية المقدسة كبئر زمزم والكعبة وغار ثور وحراء⁴⁶.

1.6. المصادر العلمية لفقه العمران

ذكر وهبة الزحيلي مجموعة من المصادر التي اختصت بفقه العمران والتي عددها في سبعون (70) مصدرا⁴⁷. ولو أننا نعتبرها نماذج فقط لهذا الجانب لأنها تفوق في الواقع هذا الرقم بكثير. تشمل مختلف المرافق الخاصة بهذا الجانب، كونه يعتني بحياة الناس ومن منطلق أنه أمر دينوي، كما جاء في الحديث الذي أخرجه مسلم عن أنس بن مالك وعائشة: "أنتم أعلم بأمر دنياكم"، وفي هذا الحديث دعوة للناس للنظر في أمور السياسة والاقتصاد والاجتماع وكل ما يخص تنظيم شؤون حياته وضبطها. وتشمل هذه المصادر العلمية آيات القرآن والأحاديث النبوية، والفقه وأحكامه، والمصنفات الجغرافية والتاريخ العام، وكتب الحضارة والأحكام والقيم، وغيرها.

وفي نفس السياق، وفي مقال المؤلفات التراثية في فقه البيئة والكون والكائنات قدم عبد السلام الوجيه قائمة طويلة من المصادر والموسوعات العربية الإسلامية في ميدان فقه البيئة، بعد أن قدم إطارا معرفيا لفقه البيئة وتعريفا للمفردات الخاصة بها، هذه القائمة تشمل الأوبئة ونظافة المحيط، والعمران البشري، والمياه، والطب، والصنائع، ومختلف العلوم التي لها علاقة بالمحيط الذي يعيش فيه الإنسان من منظور إسلامي، وانطلاقا من مصنفات متعددة تتعلق أساسا بالإنتاج

المعرفي خلال العصر الوسيط، وتعتبر هذه القائمة نافذة عن الفكر البيئي انطلاقاً من زوايا مختلفة تدخل في سياق فقه العمران⁴⁸.

ودون الحاجة إلى سرد النصوص التاريخية والجغرافية والمتون الفقهية الواسعة التي توزعت على مجالات حياة الناس في المدن والقرى وحتى الأرياف، والأسس والقواعد التي وضعتها كتب النظم والاحكام من أجل تنظيم الحياة فيها، فإن الفقهاء تأثروا منذ القرن الرابع الهجري (10م) بالنظرة السائدة حول محاسن وفضائل الاجتماع المدني، والترغيب في الهجرة إلى المدن منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم. وربط ذلك بإتمام شعائر الدين في إقامة صلاة الجمعة، وغيرها من العوامل المحفزة للاستقرار بالمدن، عكس البادية والريف⁴⁹.

2.6 فقه الجار

يقول الله تعالى ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ سورة النساء الآية 36.

كما وردت أحاديث كثيرة توضح حقوق الجار في الإسلام، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "الجاران ثلاثة: فجار له حق واحد، وهو أدنى الجيران حقاً، وجار له حقان، وجار له ثلاثة حقوق؛ فأما الذي له حق واحد فجار مشرك لا رحم له، له حق الجوار، وأما الذي له حقان فجار مسلم، له حق الإسلام وحق الجوار، وأما الذي له ثلاثة حقوق فجار مسلم ذو رحم، له حق الإسلام وحق الرحم وحق الجوار". رواه البزار وأبو الشيخ في الثواب وأبو نعيم عن

جابر⁵⁰ وقد أسهبت المعاجم العربية في شرح وبيان معاني الجار وحقوق الجيرة في الإسلام، وهي كلها معاني حضارية سامية تلح على أن الجار يجب معاملته بمقام يليق به، وتطورت هذه المعاني إلى أن أصبحت حقوق لهذا الجار، ولم تعد أمرا يمكن تجاوزه، بل هو واجب على المسلم القيام به والامتنال له. وقد فصلت كتب الفقه العمراني في المسائل التي تخص المدينة الإسلامية في علاقات الجوار، في مسائل تلاصق الديار، والحيطان وإعلاء الجدار بحيث تحجب الاشعة عن الجار، والشباك المفتوح، والشوارع والحوانيت وحق المرور.⁵¹

ترتبط المدينة الإسلامية مبدئيا بشعائر الدين، ولذلك فإن تخطيط المدينة يكون وفقا لهذه الشعائر التي من بينها الصلاة التي تعتبر ركن الدين، إن تمتع المسجد بمكانة مركزية في المدينة الإسلامية يعود إلى دوره الحيوي في الجماعة الإسلامية خلال الأوقات الخاصة بالصلاة في اليوم، وهو دلالة على مكانة الايمان في نفوس المسلمين⁵². وقد حرص الفقهاء على مرفق المسجد الجامع من أجل إقامة صلاة الجمعة والتي اختلفت المذاهب في الحد الأدنى لتأديتها، فعند الماوردي أن صلاة الجمعة: "لا يجوز إقامتها إلا في وطن مجتمع المنازل يسكنه من تنعقد بهم الجمعة، لا يظعنون عنه شتاء ولا صيفا إلا ظعن الحاجة، سواء كان مصرا أو قرية. وقال أبو حنيفة: تختص الجمعة بالأمصار، ولا يجوز إقامتها في القرى، واعتبر المصرب أن يكون فيه سلطان يقيم الحدود، وقاض ينفذ الأحكام"⁵³.

ويرى الماوردي أن الأمصار لها أدوار خمسة: أن يستوطنها أهلها طلبا للسكون والدعة، وحفظ الأموال من استهلاك واضاعة، وصيانة الحرم والحرمة من انتهاك ومذلة، والتماس ما تدعو إليه الحاجة من متاع وصناعة، والتعرض للكسب وطلب المادة. ويؤكد أن للمدينة شروط يجب توفرها عند التخطيط، تتمثل في: "وفرة المياه العذبة، وإمكانيات مادية تغذيها، وملاءمة البيئة وصحة الهواء والتربة، والقرب من المراعي والغابات للاحتطاب، وتميز الموقع بالمنعة للدفاع، وأخيرا وفرة الموقع على مصادر مختلف الموارد"⁵⁴.

إن مبدأ فلسفة العمران الإسلامية تتجاوز النظر للمدن ككيان مادي مشكل من مرافق وأحياء تخدم سكانها، بقدر ما ترتبط هذه الفلسفة ببناء الإنسان في حد ذاته. كانت البداية الأولى لظهور المدينة الإسلامية، تعود إلى يثرب (المدينة المنورة) والتي تحولت إلى قاعدة لمفهوم المدينة الإسلامية، فبعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى يثرب قام بالكثير من التغييرات التي قلبت أسس المجتمع الجاهلي، اعتمادا على الدعوة إلى الإسلام كتعاليم دينية ومعاملات بين الناس (المهاجرين والأنصار) كأفعال عملية، وأدى ذلك إلى ظهور جماعة إسلامية قائمة على أسس حضارية جديدة تطورت ونمت وأصبحت مرجعا لمفهوم الجماعة الإسلامية التي أنهت العصبيّة القبليّة، وكذلك مرجعا للمدينة الإسلامية لحاضرة يثرب⁵⁵.

لذلك فإن المصادر الفقهية اهتمت بالعمارة كمكون شامل لحياة المسلم؛ بدءا من اختيار الموقع الجغرافي والبيئة المناسبة وعدم تعارض مصالح الجيران في المدن، ومسألة الملكية والتوريث والغصب، وحقوق الطريق والشوارع والمرافق العامة المشتركة. وتظهر أصالة هذه المؤلفات إذا عرفنا أن مؤلفيها هم حرفيون في مهنة البناء إضافة إلى كونهم فقهاء، وعلى دراية تامة بما له علاقة بالبناء والعمارة، ومن أهم هذه المصادر كتاب "الإعلان بأحكام البنين" لابن الرامي البناء.

ويليه كتاب "القسمه وأصول الأراضين" لأبي العباس أحمد بن محمد بكر الفرستائي النفوسي. ويعتبر هذا الأخير من أهم مصنفات التراث الخاصة بفقهاء العمارة الإسلامية، ويشمل العمران الحضري والريفي الخاصة بتخطيط المدن والسكك والشوارع والمنازل، ومد السواقي وغرس الأشجار وحفر الآبار. ويهتم هذا المصنف بعمارة القصور التي تنتشر في المناطق الواحية.

إن الوقوف على هذه الخلفيات الفقهية والعقدية ستثبت حتما خصائص المدينة الإسلامية التي تختلف جوهريا مع باقي الأنماط العمرانية، ففي أوروبا مثلا والتي تطورت معرفيا، وأحدثت فارقا في الجانب العمراني، من خلال تطور العمارة القوطية، بين القرنين 12م و16م، فظهرت الكاتدرايات القوطية التي تطلبت مهارات فائقة في الأداء والدقة في عمارة الهيكل بدل عمارة الكتل⁵⁶.

ثم تطور هذا النمط إلى مستوى أعلى في عمارة عصر النهضة، ثم الثورة الصناعية وما تبعها من تطورات. وفي الجانب الآخر توقف التطور في الكثير من المجالات. ولذلك تتعذر عملية المقارنة بين الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروبية بعد القرن الثالث عشر.

3.6 المدينة وكتب النظم والسياسة الشرعية:

كتب السياسة الشرعية والآداب السلطانية قدمت نصوصا في سياسة الملك من أجل تحكم السلطان في شؤون ملكه وضمان استقراره، كما اعتبرت آليات لتسويق أفعال الحكام وتبرير إجراءاتهم أمام الرعية. ومن بين تلك الإجراءات تلك السياسة المتعلقة بعلاقات الحكام بالمدن، والتي تقدم في شكل توجيهات وقواعد ونصائح تخص آليات ضبط العلاقات بين الناس وبينهم وبين الولاة والعمال والوزراء، وأغلب هذه المصنفات تنطلق من خلفيات سابقة للإسلام. غير أن

الكثير منها ظهر خلال الفترة الإسلامية فكانت ضوابطها وقواعدها تتم وفق الشريعة الإسلامية رغم عدم اتفاقها جميعا على الأهداف وأسباب تأليفها.

ويمكن أن نجد قائمة من هؤلاء الكتاب في هذا الصنف، ومن أهمهم نذكر:

أبو الحسن الماوردي (ت450هـ / 1058م) من كتبه: "سياسة الملك"، وكتاب "تسهيل النظر وتعجيل الظفر"، وكتاب "الأحكام السلطانية والولايات الدينية"، وكتاب "أدب الدنيا والدين". تقدم هذه المؤلفات إطارا عاما للحاكم في كيفية تسير شؤون الدولة والمهام التي يجب عليه القيام بها، وفي نفس الوقت يضع قواعد لإقامة الحدود ووجوب تقديم الطاعة للحاكم من خلال السلطات التي يجوزها وفق مبدأ الولاء.

كما قدم **أبو حامد الغزالي** (ت505هـ / 1111م) كتاب ألفه بالفارسية ثم ترجم إلى اللغة العربية وهو "التبر المسبوك في سياسة الملوك".

أما **ابن الجوزي** (ت597هـ / 1200م) فقد ألف كتاب "حسن السلوك في مواظب الملوك"، وهذا الكتاب نسب لآخرين وله علاقة بكتاب القزويني "عجائب المخلوقات" الذي ينقل عنه.

وكتب **ابن أبي الربيع** (ت672هـ) كتاب "سلوك المالك في تدبير الممالك". وأما **محب الدين أبي حامد المقدسي** (ت868) فألف كتاب "بذل النصائح الشرعية فيما على السلطان وولاية الأمور وسائر الرعية".

هذه نماذج من كتب السياسة التي ترتبط بال عمران وكيفية التحكم في الأقاليم والولايات والمدن وشروط تولي المناصب وتدبير شؤون الحكم، وما يهمنا في هذا الباب هو ما يتعلق في بدراسة المدينة كفضاء حضري إسلامي وفق هذه النصوص الشرعية.

7. قواعد العمران وأحوال المدن عند ابن خلدون:

عاش ابن خلدون في عصر شهد أزمات متعددة انتهت بأفكار حضاري ملحوظ في القرنين السابع والثامن (14-15م)، وقد سعى إلى تشخيص هذا الضعف والانحطاط من خلال مؤلفه الشهير بالمقدمة، ومن أجل ذلك خرج على العادة في التأليف فمزج مختلف العلوم والمعارف والتخصصات من أجل بيان وتوصيف الواقع الذي كان يعيشه، وكشف أسبابه.

ومن مظاهر العمران في الفكر الخلدوني بناء البيوت والمدن لحاجة الناس للاستقرار: "فيتخذون القصور والمنازل ويمجرون فيها المياه ويعالون في صرحها ويبالغون في تنجيدها ويختلفون في استجداء ما يتخذونه لمعاشهم من ملبوس أو فراش أو آنية أو ماعون وهؤلاء هم الحضرة. ومعناه الحاضرون أهل الأمصار والبلدان"⁵⁷. وعن سكان المغرب البربر يوضح أنهم "يتخذون البيوت من الحجارة والطين ومن الخوص والشجر ومن الشعر والوبر، ويظعن أهل العز منهم والغلبة لانتجاع المراعي، فيما قرب من الرحلة"⁵⁸.

ويشير ابن خلدون إلى أن الانغماس في الترف يؤدي إلى ضياع الملك وسقوطه، وذلك بسبب "اللجوء إلى الدعة والراحة والأخذ بمذاهب الملك في المباني والملابس والاستكثار من ذلك والتألق فيه بمقدار ما حصل من الرياش والترف وما يدعو إليه من توابع ذلك فتذهب خشونة البداوة وتضعف العصبية والبسالة ويتنعمون فيما أتاهم الله من البسطة، وتنشأ بنوهم وأعقابهم في مثل ذلك من الترف عن خدمة أنفسهم وولاية حاجاتهم ويستنكفون عن سائر الأمور الضرورية في العصبية، حتى يصير ذلك خلفا لهم وسجية، فتنقص عصبيتهم وبسالتهم في الأجيال بعدهم يتعاقبها إلى أن تنقرض العصبية"⁵⁹.

وقد خصص في مؤلفه المذكور اثنين وعشرين فصلا، لدراسة العمران وأحوال المدن والأمصار؛ وفي هذه الفصول يدرس ابن خلدون المدن من مختلف أوجهها، بداية من التخطيط واختيار الموقع وشروط صحته، ونمو المدن وتطورها، ويرفع ابن خلدون البناء إلى مصاف الصنائع الهامة في حياة المجتمع ويقول أنها: "أول صنائع العمران الحضري وأقدمها وهي معرفة العمل في اتخاذ البيوت والمنازل للسكن والمأوى للأبدان في المدن، ذلك أن الإنسان لما جبل عليه من الفكر في عواقب أحواله لا بد أن يفكر فيما يدفع عنه الأذى من الحر والبرد، كاتخاذ البيوت المكتنفة بالسقف والحيطان من سائر جهاتها"⁶⁰. ثم يضع شروطا عديدة يجب توافرها عند من يشتغل بهذه الصنعة ومنها: "أشياء من الهندسة مثل تسوية الحيطان بالوزن، وإجراء المياه بأخذ الارتفاع وأمثال ذلك، فيحتاج إلى البصر بشيء من مسائله، وكذلك في جر الأثقال بالهندام فإن الأجرام العظيمة إذا شيدت بالحجارة الكبيرة يعجز قدر الفعلة عن رفعها إلى مكانها من الحائط"⁶¹.

8. خاتمة

من خلال ما أشرنا إليه فإن الكتابات العربية الوسيطية تكون قد وضعت لبنة أساسية من اللبنة الأولى للإثنوغرافيا كقطاع معرفي يهتم بطبيعة النظم الاجتماعية والثقافية للمجتمعات، دون خلفية نظرية بالمعنى المتعارف عليه اليوم على المستوى الأكاديمي، وأسست بالتالي لمحة معرفية جمعت بين الوصف والتنظير في مرحلة لاحقة، ولا سيما في العصر الحديث⁶².

وبالنسبة للعقبات المنهجية التي يمكن أن نجدها في هذه المصادر التي لها علاقة بالمدينة وال عمران بشكل عام، فإن النصوص الأدبية على ندرتها، لا يمكن أن تفيدنا وبشكل دقيق وواضح عن بداية وتاريخ تأسيس المدن ونشأتها بشمال إفريقيا، زيادة على كون تلك النصوص عادة ما تخلط بين ما هو أسطوري وبين ما هو تاريخي، وتتعدى هذه المشكلة قضية النشأة والتأسيس، فتختلف حول اسم المدينة وموقعها. وتظهر هذه المسألة خاصة في بلاد الغرب الإسلامي في القرون التالية للفتح الإسلامي، حيث كانت المصادر المشرقية بعيدة عن المنطقة وتنقل روايات متأخرة عن الفترة المدروسة⁶³. ويكون الأمر أكثر تعقيدا بالنسبة للحواضر والمدن المندثرة.

ونؤكد في الأخير أن للمدينة العربية الإسلامية في العصر الوسيط شخصيتها الخاصة والتي اكتسبتها من صيرورتها التاريخية التي تفاعلت مع المكونات العقدية للدين الإسلامي، وإذا كان الإسلام قد أثرى المكونات الحضارية للشعوب ومختلف القوميات التي كونت الخلافة الإسلامية، فإن ذلك أنتج فسيفساء حضارية فريدة مست الجوانب العمرانية امتدت على طول حدود ومجالات العالم الإسلامي. والتي ضبطتها الأحكام الفقهية، ومصنفات النظم الإسلامية، وكانت النصوص الجغرافية وكتابات الرحالة شاهدة عيان على هذا التطور المتشعب، والذي يعبر بصدق عن عمق وأصالة المدينة الإسلامية.

9. قائمة المراجع:

إبراهيم القادري بوتشيش: وجدة والمدينة الأروبية الوسيطية. المجلد 3. جامعة محمد الأول، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية.

ابن الرامي. الإعلان بأحكام البنيان . المجلد 1. مركز الدراسات والإعلام ، دار اشبيليا. سلطنة عمان، 1995.

ابن حوقل: صورة الأرض، ط2. دار صادر. 1938.

ابن خلدون: كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. المجلد 6. بيروت: دار الفكر. 2000.

ابن خلدون: المقدمة. ابن خلدون، دار الجيل. بيروت.

ابن منظور: لسان العرب المحيط. دار الجيل. بيروت، 1988.

أبو القاسم الحسين بن محمد ، الراغب الأصفهاني: المفردات في شرح غريب القرآن ، تح ، محمد خليل عيتاني، لبنان. 1998.

الادريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. عالم الكتب. بيروت، 1989.

الأصطخري: المسالك والممالك، دار القلم. القاهرة 1961.

البكري: المسالك والممالك المجلد 2. دار الكتب العلمية. بيروت، 2023.

الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية . بيروت. 2001.

المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، الإصدار 03. دار الكتب العلمية. 2003.

اليعقوبي. البلدان. دار الكتب العلمية، لبنان.

خالد محمد عزب: جوانيب مجهولة من فقه العمران في الحضارة الإسلامية. أعمال ندوة تطور العلوم الفقهية. الفقه الحضاري، فقه العمران. 1431-2010. وزارة الأوقاف والشؤون الدينية. سلطنة عمان، 2012.

- رضوان السيد: الفقه الحضاري الوظائف والغايات. أعمال ندوة تطور العلوم الفقهية. الفقه الحضاري، فقه العمران. 2010-1431. وزارة الأوقاف والشؤون الدينية. 2012.
- روجي ادريس الهادي: الدولة الصنهاجية تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12م. المجلد 2. دار الغرب الإسلامي. بيروت، 1992.
- شاكور مصطفى: المدن في الإسلام حتى العصر العثماني المجلد 1. دار طلاس للدراسات والترجمة. دمشق، 1997.
- شعيب حليفي: الرحلة في الادب العربي التجنس. البات الكتابة خطاب المتخيل. رؤية للنشر والتوزيع. القاهرة، 2006.
- عبد اتلهادي التازي: نظم المدن الإسلامية. أعمال ندوة تطور العلوم الفقهية. الفقه الحضاري، فقه العمران. وزارة الأوقاف والشؤون الدينية. سلطنة عمان، 2010-1431. 2012.
- عبد الجبار ناجي: دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية. شركة المطبوعات للنشر والتوزيع. بيروت، 2001.
- عبد السلام الوجيه: المؤلفات التراثية في فقه البيئة والكون والكائنات. تأليف أعمال ندوة تطور العلوم الفقهية. الفقه الحضاري، فقه العمران. 2010-1431. وزارة الأوقاف والشؤون الدينية. سلطنة عمان، 2012.
- علاوة عمارة: دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية. 2008.
- عمامو حياة: أسلمة بلاد المغرب، إسلام التأسيس من الفتوحات إلى ظهور النحل. دار أمل. تونس، 2004.

كراتشوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي المجلد ج 1. الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1957.

لطفى دبش: الإنسان والمكان في الثقافة العربية الإسلامية. قراءة في نصوص الجغرافيين والرحالين والمسالكين العرب إلى القرن الخامس الهجري. منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة تونس. 2011.

محمد العميم: إشكالية أصل المدينة بشمال إفريقيا. المدينة في تاريخ المغرب العربي. اشغال الندوة المنظمة من 24 إلى 26 نوفمبر. منشورات كلية الاداب والعلوم الإنسانية 2. ابن مسيك. 1988.

محمد بن يوس اطفيش: جامع الشمل في حديث خاتم الرسل. دار الكتب العلمية.

محمد حبابي: الأسباب والأساطير المرتبطة بتأسيس المدن الإسلامية بالمغرب. المدينة في تاريخ المغرب العربي. اشغال الندوة المنظمة من 24 إلى 26 نوفمبر 1988. منشورات كلية الاداب والعلوم الإنسانية 2 ابن مسيك. 1988.

محمد حبيدة: النص الاثنولوجي الوسيط. الخبر الجغرافي نموذجاً. الكتابة التاريخية في العصر الوسيط من الخبر والرواية إلى النص والوثيقة. اشغال الملتقى الدولي السادس تونس 8 30 افريل 2010. منشورات مخبر العالم العربي الإسلامي الوسيط. تونس، 2011.

محمد عبد الستار عثمان: المدينة الإسلامية. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة. 1988.

محمد مرسي الحريري: الشريف الإدريسي ودور الرحلة في جغرافيته. دار المعرفة الجامعية. الإسكندرية، 1985.

هشام جعيط: نشأة المدينة العربية الإسلامية – الكوفة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 2005.

وهبة مصطفى الزحيلي: المصادر العلمية لفقه العمران، أعمال ندوة تطور العلوم الفقهية. الفقه الحضاري، فقه العمران. وزارة الأوقاف والشؤون الدينية. سلطنة عمان، 1431-2010. 2012.

amara, A. Les fatimides et le maghreb central. Littoralisation de la dynastie et modes de contrôle des territoires. Revue des mondes musulmans et de la méditerranée.(139)..2016

henri, P. D. La littérature générale et comparée. Paris. .

Larousse. (1998 .). Paris.1998 .

10. هوامش:

¹ ابن منظور: لسان العرب المحيط. بيروت: دار الجيل. 1988. مادة مدينة. ص 455.

² هشام جعيط: نشأة المدينة العربية الإسلامية – الكوفة، دار الطليعة للطباعة والنشر. بيروت، 2005. ص 201.

³ Larousse. (1998). Paris.

⁴ عبد الجبار ناجي: دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية، شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، بيروت، 2001. ص 59.

⁵ أبو القاسم الحسين بن محمد، الراغب الأصفهاني: المفردات في شرح غريب القرآن ، تح ، محمد خليل عيتاني، لبنان. 1998. ص 350.

⁶ المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دار الكتب العلمية، ط3، 2003. ص 53.

⁷ ابن حوقل: صورة الأرض . دار صادر، ط2، 1938. ص 93 94.

⁸ الأصطخري: المسالك والمما، دار القل، القاهرة، 1961 ، ص 33.

- 9 علاوة عمارة: دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر، 2008. ص 151.
- 10 محمد حبيدة: النص الانثولوجي الوسيط. الخبر الجغرافي نموذجاً. الكتابة التاريخية في العصر الوسيط من الخبر والرواية إلى النص والوثيقة. اشغال الملتقى الدولي السادس 30 افريل 2010. منشورات مخبر العالم العربي الإسلامي الوسيط. تونس، 2011. ص 411.
- 11 ابن حوقل: المصدر السابق. ص 03.
- 12 محمد حبيدة: المرجع السابق. ص 409.
- 13 البعقوبي: البلدان، دار الكتب العلمية، لبنان. ص 09.
- 14 ابن حوقل: المصدر السابق. ص 02 03.
- 15 ابن حوقل: المصدر نفسه. ص 60 61.
- 16 كراتشوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي (المجلد ج1). الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية ، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1957. ص 208.
- 17 عبد الجبار ناجي: المرجع السابق. ص 71 72.
- 18 المقدسي: المصدر السابق. ص 44.
- 19 المقدسي: نفسه. ص 46.
- 20 المقدسي: المصدر السابق. ص 46 47.
- 21 المقدس: نفسه. ص 189.
- 22 محمد مرسى الحري: الشريف الإدريسي ودور الرحلة في جغرافيته. دار المعرفة الجامعية. الإسكندرية، 1985. ص 85.
- 23 الادريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. عالم الكتب. بيروت، 1989. ص 37.

- 24 المشترك وضعاً والمفترق صقعا، عالم الكتب للنشر والتوزيع. بيروت. 1986.
- 25 احمد الباهي: حول هوية ابن عبد المنعم الحميري مؤلف كتاب الروض المعطار. أشغال الملتقى الدولي: الرحلة والرحالة في العالم العربي الإسلامي. تونس. أكتوبر 2006.
- 26 شاعر مصطفى: المدن في الإسلام حتى العصر العثماني، ج1، دار طلاس للدراسات والترجمة، دمشق، 1997، ص 41 42.
- 27 محمد حبابي: الأسباب والأساطير المرتبطة بتأسيس المدن الإسلامية بالمغرب. المدينة في تاريخ المغرب العربي. اشغال الندوة المنظمة من 24 إلى 26 نوفمبر 1988. منشورات كلية الاداب والعلوم الإنسانية 2 ابن مسيك. ص 70.
- 28 محمد حبابي: المرجع السابق. ص 75.
- 29 أبي زكرياء يحي بن أبي بكر: كتاب سير الأئمة وأخبارهم. تحقيق إسماعيل العربي. المكتبة الوطنية. الجزائر. 1979. ص 53.
- 30 محمد حبابي: المرجع نفسه. ص 75.
- 31 ابن خلدون: كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. ج6. دار الفكر. بيروت، 2000، ص 227. روجي ادريس الهادي: الدولة الصنهاجية تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12م، ج2، دار الغرب الإسلامي. بيروت، 1992، ص 98.
- 32 البكري: (2003). المسالك والممالك، ج2، دار الكتب العلمية. بيروت، ص 259.
- 33 الادريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. 1989. ص 260.
- 34 البكري: (2003). المسالك والممالك، ج2، دار الكتب العلمية. بيروت، ص 285.
- 35 عمادو حياة: أسلمة بلاد المغرب، إسلام التأسيس من الفتوحات إلى ظهور النحل. تونس: دار أمل. 2004، ص 177.

- 36 لطفي ديش: الإنسان والمكان في الثقافة العربية الإسلامية. قراءة في نصوص الجغرافيين والرحالين والمسالكين العرب إلى القرن الخامس الهجري. منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة تونس. 2011، 496 497.
- 37 شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي التجنس. اليات الكتابة خطاب المتخيل. القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع. 2006، ص 243.
- 38 Henri, P. D. (1994). La littérature générale et comparée. Paris. Larousse. Paris. 1988, p 350.
- 39 شعيب حليفي: المرجع السابق. ص 350.
- 40 شعيب حليفي: المرجع السابق. ص 350.
- 41 Amara, A. Les fatimides et le maghreb central. Littoralisation de la dynastie et modes de contrôle des territoires. Revue des mondes musulmans et de la méditerranée.(139.) 2016. p 113.
- 42 محمد العميم: إشكالية أصل المدينة بشمال إفريقيا. المدينة في تاريخ المغرب العربي. اشغال الندوة المنظمة من 24 إلى 26 نوفمبر. منشورات كلية الاداب والعلوم الإنسانية 2 ابن مسيك. 1988.
- 43 ابن منظور: المصدر السابق. ص 3450.
- 44 رضوان السيد: الفقه الحضاري الوظائف والغايات. أعمال ندوة تطور العلوم الفقهية. الفقه الحضاري، فقه العمران. 2010-1431. وزارة الأوقاف والشؤون الدينية. 2012، ص 25 26.
- 45 محمد عبد الستار عثمان: المدينة الإسلامية. (المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب)، سلسلة عالم المعرفة. 1988، ص 07.
- 46 لطفي ديش: المرجع السابق. ص 464 465.
- 47 وهبة مصطفى الزحيلي: المصادر العلمية لفقه العمران. تأليف وزارة الأوقاف والشؤون الدينية. أعمال ندوة تطور العلوم الفقهية. الفقه الحضاري، فقه العمران. سلطنة عمان، 1431-2010. 2012، ص 67 71.

- 48 عبد السلام الوجيه: المؤلفات التراثية في فقه البيئة والكون والكائنات. تأليف أعمال ندوة تطور العلوم الفقهية. الفقه الحضاري، فقه العمران. 1431-2010. وزارة الأوقاف والشؤون الدينية. سلطنة عمان، 2012، ص 337.
- 49 رضوان السيد: المرجع السابق. ص 913 914.
- 50 محمد بن يوسف اطفيش. جامع الشمل في حديث خاتم الرسل. دار الكتب العلمية. ص 476.
- 51 ابن الرامي: الإعلان بأحكام البنين. ج1، مركز الدراسات والإعلام، دار اشبيليا. سلطنة عمان، 1995، ص 103 105 150 154.
- 52 خالد محمد عزب: جوانيب مجهولة من فقه العمران في الحضارة الإسلامية. أعمال ندوة تطور العلوم الفقهية. الفقه الحضاري، فقه العمران. 1431-2010. سلطنة عمان: وزارة الأوقاف والشؤون الدينية. 2012، ص 927 228.
- 53 الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية. بيروت. 2001، ص 122.
- 54 الماوردي: المصدر نفسه. ص 209.
- 55 محمد عبد الستار عثمان: المرجع السابق. ص 45.
- 56 إبراهيم القادري بوتشيش: وجدة والمدينة الأروبية الوسيطة. جامعة محمد الأول، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، المجلد 3. 1992، ص 47.
- 57 ابن خلدون: المقدمة. ابن خلدون، بيروت: دار الجيل. ص 133.
- 58 ابن خلدون: ديوان العبر. ج6. ص 166.
- 59 ابن خلدون: المقدمة. ص 140.
- 60 ابن خلدون: المقدمة. ص 450 451.
- 61 ابن خلدون: المقدمة. 453.

62 محمد حبيدة: المرجع السابق. ص 416 417.

63 محمد العميم: المرجع السابق. ص 62.